واخذا يتلوان فيه لائحة من التهم . واعلنا انهما يفضلان عبد الناصر على شمعون ، كما اكدا ان مصر لا مطامح لها في لبنان ، كما نفيا المساعدة السورية ، غير ان نفيهما لم يكن مقنعا . وبعد ساعات من النقاش ، بدا أن مبعوثي سلام فهما أن الولايات المتحدة لا تسعى الا الى حماية استقلال لبنان . وخلصا الى القول ، انهما لا يحملان تجاهنا اي شعور غير ودي ، عندها اغتنمت الفرصة للحديث حول أمن القوات الاميركية . واوضحت لهما ان الواجب الاول للقائد العسكري هو حماية رجاله . وبينت لهما ، ان النيران تطلق ليليا عن قصد او دون قصد على رماة البحرية ، وانه لاعجوبة ان لا يقتل احد منا . اضفت ، انه طالما لم نتكبد اية خسائر خلال عملية الانزال ، مفسرا هذا بالنية الحسنة عند جميع الاطراف ، التي اقدرها . وافق المتمردان المسلمان دون ان تتغير ملامحهما البريئة . عندها تابعت كلامي ، فوصفت العتاد الذي كان في حوزة الاميرال هولووي ، وقوته التي تكفي لتدمير بيروت تدميرا كاملا خلال بضع دقائق . ثم كررت عليهما بأن واجب الاميرال هولووي وهو الرجل الحسن النية هو الحفاظ اولا على امن قواته . الا يمكن لصائب سلام او لمؤيديه ان يكفوا عن اطلاق النار العشوائي الذي يمكنه ان يؤدي في اية لحظة الى رد قوي ؟ كان لكلامي اثر واضح . توقف التراشق في اليوم التالي ، ما عدا بعض الرشاشات الخاطفة ، واصبحت الحياة في بيروت اكثر هدوءا . كنت دائم الامتنان لبيل ادي ، الذي سهل هذا اللقاء، الذي يشكل منعطفا في السياسة اللبنانية ، بعد بضعة ايام تمكنت من لقاء صائب سلام في البسطة .

أما الاتصالات التي اجريتها فيما بعد مع قائد اخر من قادة التمرد ، القائد الدرزي كمال جنبلاط ، فقد ارغمتني على سفر غريب في جبال الشوف حتى قلعته في سبلين . وقد اعد احد النواب ، وهو نائب رئيس الحزب التقدمي ، هذا اللقاء . لم يكن تسلق هذه الطرق الضيقة الوعرة سهلا ، لكن رؤية مسلمين ملتحين مخيفين على طول الطريق زادني قلقا . وعلى الرغم من ذلك فقد كان الاستقبال وديا . كان جنبلاط صديقا حميما للرئيس شمعون ، قبل ان يهزم جنبلاط في الانتخابات النيابية الاخيرة ، واتهم شمعون انه كان سببا في ذلك ، كما ادعى ان المال الاميركي هو الذي مول الحملة التي جرت ضده . كانت افكار جنبلاط السياسية مبهمة . وقد تناوب افراد عائلته على مقاعد المجلس النيابي خلال أربعة اجيال ، لذا كان لهزيمته اثر كبير على نفوذ عشيرته . وبدا لي ان ابعاد جنبلاط كان خطا سياسيا ، الى جانب اخطاء اخرى تاكدت منها قبلا ، تبرهن عن تمسك شمعون بولايته على حساب اصدقائه ومنافسيه معا .

بقي علينا بعد ذلك ان نلتقي شخصية اسلامية اخرى : رشيد كرامي ، الذي كان مختبئا على الشاطيء قرب طرابلس . تمكنت برفقة ماكلينتوك من عبور مناطق المتمردين لزيارته وذلك بفضل مساعدة اللواء شهاب . عندما يكون القائد خارجا على القانون ، وفي خطر مستمر ، لا يمكنه التفكير بشكل طبيعي ، وغالبا ما تكون معلوماته مشوهة . كان كرامي يعتقد ان ناصر لا يهدد استقلال لبنان ، بل الولايات المتحدة هي التي تريد ابقاء شمعون في سدة الحكم . لكن كرامي لا يكن اية مشاعر عدائية ضد الولايات المتحدة . وعندما اصبح رئيسا لمجلس الوزراء فيما بعد ، كنت مسرورا برؤيته في واشنطن .

كان يتردد احيانا اسم ريمون اده نائب جبيل المحبوب ، بين المرشحين المؤهلين لخلافة الرئيس شمعون . دعاني يوما الى زيارة مقاطعته الانتخابية التي تمتد حول المرفأ التجاري الفينيقي القديم . اطلعني مدير متحف جبيل ، بين ذخائر الماضي الساحرة على الابجدية الفينيقية الاولى المنحوتة على الحجر . أما مشاهدة الجرار المائتية المدفونة قبل سبعة الاف سنة فجعلتنا ننظر الى العصيان الحالي بصفاء . بعد أن تحاورنا مع الشخصيات المحلية وتناولنا طعام غداء فخم ، قمنا بزيارة قريتين عربيتين حيث استقبل اده بزخات الرصاص التقليدية وبكثير من المدح وفناجين القهوة . كان اده يعرف ناخبيه جيدا ، وهم يضمرون له بدورهم محبة جلية . ثم اتجهنا نحو نهر ادونيس ، المركز الديني منذ الاف السنين ، حيث كانت تاتي السيدات